أ-مصطفى علوي

عنوان المداخلة: الأمير عبد القادر الجزائري و دوره في إرساء الثقافة الوطنية

تمهيد:

يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري من الشخصيات الوطنية الهامة في تاريخ الجزائر،و ذلك لتاريخه النضالي و من المقاومين ضد الاستعمار الفرنسي بمنطقة الغرب الجزائري من 1832-1847 و يعد الأول من بنى أسس و دعائم الدولة الجزائرية الحديثة.

لقد حاولت فرنسا بعد احتلالها الجزائر سنة 1830 تطبيق سياسة استعمارية شملت مجالات متعددة،و كان من بين أهدافها إلحاق الجزائر ترابا و شعبا بفرنسا و سعيها كذلك للقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية،كما كان لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري أبعاد مختلفة في مقدمتها تحرير الجزائر و الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية و بالأخص الهوية الوطنية.

و تتمثل الإشكالية التي يطرحها الموضوع في التساؤل عن العوامل التي ساهمت في البناء الثقافي لشخصية الأمير عبد القادر الجزائري و دورها(الشخصية)في إرساء الثقافة الوطنية و الحفاظ على الهوية الوطنية (الأمير القدوة)

1- ثقافة الأمير عبد القادر:

ولد الأمير عبد القادر بن محي الدين يوم 06 سبتمبر 1808م في قرية القيطنة بمعسكر[1]على ضفة وادي الحمام في منطقة اغرريس التي تقع في إقليم وهران في الجزائر[2]،ينسب إلى ذرية سيدنا علي بن أبي طالب[3]، هاجرت أسرته من المغرب الأقصى إلى نواحي وهران و اشتهر رجال منها بالورع و كانوا قدوة للناس[4]لانتمائهم في الأصل إلى أجدادهم الأدارسة الأشراف[5]الذين أسسوا ملكا بالمغرب الأقصى.

في الخامسة من عمره التحق الأمير عبد القادر بمسقط رأسه في القيطنة أين تلقى دروسه الابتدائية،حيث بدل والده قصارى جهده في تثقيف ولده لما لاحظ عليه من علامات التفوق و الذكاء،فأخذ عن والده مبادئ القراءة و الكتابة[6]و استطاع في مدة وجيزة اكتساب جانب عظيم من العلم،و حفظ القرآن الكريم قبل أن يتجاوز سن الثانية عشرة من عمره و درس الحديث و أصول الشريعة و مبادئ الفقه حتى حصل في سن الرابعة عشرة من عمره على تسمية "حافظ"[7]،وهذا يعني أنه أصبح يستطيع ترتيل القرآن عن ظهر قلب[8]،ونشأ في بيئة دينية إسلامية محافظة مكنته من الإبحار في مختلف العلوم.

قام الأمير عبد القادر الجزائري برحلة علمية إلى مدينة وهران،درس خلالها الفقه و الحديث وأصول الشريعة و الرياضيات و الجغرافيا و التاريخ على يد شيخه أحمد طاهر البطيوي قاضي أرزيو[9]،وكانت له رحلة أخرى فيما بعد لأداء فريضة الحج و الأماكن المقدسة[10]فأصبح يتبوأ مكانة دينية و علمية هامة كانت بمثابة البوادر الأولى لبروز شخصيته.

تشبع الأمير عبد القادر الجزائري بثقافة رباط الطريقة القادرية[11]،بعد أن سمع عن ذلك التصوف من والده الذي لا شك قد حُفر في ذاكرته[12] والذي أنتج علماء اشتهروا بالاستقامة و الصلاح و علو المكانة الشرعية و العمل بسنة الرسول(ص)و أُطلق عليهم مصطلح صوفية أو طرقية[13]التي لعبت دورا رئيسا خلال القرن 19م في محاربة الاستعمار و ذلك من خلال دعواتها المتكررة للجهاد من أجل طرد النصارى و استرجاع السيادة الوطنية المسلوبة.

كان الأمير عبد القادر فارسا و شاعرا كون اقتراب الفروسية من الشعر،و كان شعره وسيلة تخليد البطولة و رفع درجة الحماس عند المجاهدين في ميدان القتال[14]،واعتمد في صياغة أشعاره على تجاربه و على شاعريته،كونه وُلد و ترعرع في الريف و شرب من تقاليده و عاداته[15]،وكان يقضي وقته في القراءة أكثر من النوم[16]،وكان اهتمامه بالفكر والثقافة مثيل اهتمامه بالمعارك والسياسة،فوضع بذلك مؤلفات جد هامة[17] شملت أفكاره العلمية و الدينية التي هي بمثابة دليل على تاريخ الجزائر الثقافي في ذلك العصر الذي تصوره المدرسة الاستعمارية و كتّابها على أنه عصر الزوايا و الطرق الصوفية فقط[18]،و من مؤلفات الأمير عبد القادر الجزائري:

- وشاح الكتائب و زينة الجند المحمدي الغالب: هو عبارة عن تنظيمات و قوانين عسكرية[19]وضعها الأمير عبد القادر الجزائري و رسالة في فنون الحرب، تتضمن ملخص الأنظمة و القوانين العسكرية،و من حيث الشكل فهو رسالة تشريعية مستوحاة من الشريعة الإسلامية[20]
- المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل و الإلحاد:كتب الأمير عبد القادر مقدمته في سجنه في أمبواز بفرنسا،حمل أدلة عقلية و منطقية على إثبات الألوهية [21]و جاء هذا الكتاب كبحث و تنقيب لكل ما روي قبل عصره أو ُنشر عن الديانات السماوية[22]انطلاقا مما جاء في القرآن الكريم
- ذكرى العاقل و تنبيه الغافل: من أشهر مؤلفات الأمير عبد القادر، ألفه في دمشق سنة 1855م، تضمن موضوع الكتاب الحكمة و الشريعة و مسائل في مختلف العلوم[23]،تأثر الأمير في كتابته "بإحياء علوم الدين" للغزالي[24]و كان هذا المؤلف دعوة من الأمير عبد القادر للفرنسيين إلى اعتناق الإسلام.
- المواقف في التصوف والوعظ و الإرشاد: أودع فيه الأمير عبد القادر تجاربه و بيَّن فيه مذهبه الروحي الصوفي و الفلسفي للوصول إلى الحقيقة التي ينشدها[25]،فتعلق الأمير بالطريقة القادرية و قضى حياته في العبادة و الزهد و أنهى حياته الفكرية الروحية بكتاب المواقف[26]و يرى البعض أن كتاب المواقف يتضمن مواقف الأمير و علماء آخرين بالمشرق مثل محمد الأرناؤوطي باشا المصري.

- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري:للأمير عبد القادر الجزائري أشعار جُمعت في ديوان برز تحت عناوين منها "نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر"[27]أو "ديوان الأمير عبد القادر الجزائري" الذي ضم ثمانية و سبعين قصيدة[28]،يدور على المحور الغزلي و الجهادي و الروحي و الاخواني[29]،و كانت موهبة الشعر لدى الأمير منذ الصغر بالإضافة إلى و رسائله و مؤلفات أخرى.

2- دور شخصية الأمير في إرساء الثقافة الوطنية:

الشخصية هي نتاج صادق عن الوضع العام الذي تربى فيه الإنسان، و لا يمكننا معرفة مميزات شخصية الأمير كاملة و الحكم عليها إلا بمعرفة جوانب هامة، منها خصائص عصره و التعرف على بيئته و دور الزاوية القادرية في تكوينه الديني و الحربي[30]الذي تشبع بالثقافة العربية الإسلامية و التي كانت تهدف إلى الحفاظ على الهوية الوطنية من خلال:

❖ اللغة العربية والدين الإسلامي:

نشأ الأمير عبد القادر في بيئة دينية متعلمة محافظة[31]،تلقى تعليمه باللغة العربية فنمت لديه المعارف اللغوية و الفقهية، مكنته "من التحليل اللغوي إلى الموضوعات الأكثر نبلا و إثارة "[32]،و استطاع الأمير انتزاع اعتراف العدو به،و أجبره إلى توقيع معاهدات منها "معاهدة تافنة في 30 ماي 1837بين الجنرال بيجو و الأمير عبد القادر"[33] و كان لها نُسخ باللغة العربية.

عززت فرنسا قواتها العسكرية بالجزائر،ثم حاولت مرارا افتعال الذرائع لإلغاء المعاهدات المبرمة مع الأمير،غير أن الأمير"كان يحتفظ بالنص العربي الواضح و يعمل بمقتضاه،و حين عجزت السلطات الفرنسية عن الحصول منه على ما تريد،لجأت إلى التفسيرات و تحميل العبارات ما لا تطيق،مما تسبب من جديد في التوتر بين الطرفين و استئناف الحرب."[34]

ورد في تحفة الزائر أن الأمير كان "يفكر دائما إلى استمالة العرب إلى المبادئ الإسلامية و استدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة و إيقاظهم من الغفلة"[35]،و انتهج أسلوب البيعة أسوة برسول الله (ص)[36]،استقر على إسلامه حتى عند الشدائد قائلا:"لأنني رجل أوجب علي ديني أن أدافع عنه و عن أرض أهله المتمسكين بعروته الوثقى"[37]كان الأمير يأنس بالكولونيل دوماس كون فرنسا عينته وكيلا عنده في عاصمته معسكر أيام معاهدة تافنة و كان الأمير يحسن معاملته مع رفقائه و يسليهم و يتلطف معهم في سائر الأمور و يخالطهم بنفسه،و ذات يوم دخل عليه الكولونيل دوماس و هو يضحك و قال له:" أن أحد القسيسين السذج ...طلب مني أن يقابلك لكي يعرض عليك الديانة المسيحية و قد تعهد لي بفرح شديد على إقناعك و في أقرب وقت يدعك تعتنق المذهب الكاثوليكي، فقال له الأمير...قل له أن يأتي و أنا أرشده إلى الدين القويم،و يعدُّ لي ظفرا إن اقتنع رئيس ديانة مسيحية أن يتدين بديني."[38]

❖ الوطن و الوطنية:

تَداخل مفهوم الجهاد و الوطنية خلال القرن 19م، فكلمة جهاد تعني الدفاع عن حوزة الوطن[39]،لهذا سيطرت فكرتا الوطنية و القومية على سيرة الأمير،وحاول بعث الروح المعادية للسلطة الأجنبية التي احتلت البلاد[40] فبدأ عهد الأمير بالبنوة الطائعة و الإخلاص الوطني،و أدرك أن دوره هو بناء دولة عصرية لها جيش قوي و منظم، و تأسيس مراكز للتعليم على نحو جديد و ربط علاقات بالعالم الخارجي[41]،و بدل كل ما في وسعه من أجل أن يجعل الأمة الجزائرية أمة واحدة [42]،و كان ذلك نتيجة حتمية لهجمة فرنسية اغتصبت أرض الجزائر.

و هكذا برزت الوطنية الجزائرية بروزا واضحا في ذلك الكفاح المرير بين جيش الأمير المتكون من أكثر خمسة عشر ألفا من الجنود،بينما كان جيش الغزو الاستعماري يتجاوز في نفس تلك الفترة تسعين ألفا،حتى وصل إلى مائة وثمانية آلاف محارب في وقت من الأوقات[43]،و حتى عند نفيه يذكر قائلا:" كان يغلب عليّ في أغلب الأحيان تذكر الأهل و الأوطان، فتحرك مني السواكن، و تنبعث منها لأشواق الكامن".[44]

❖ العادات و التقاليد:

تميز الأمير عبد القادر الجزائري بلباسه العربي الإسلامي،فكان بسيطا يتمثل في عباءة بيضاء ذات برنس، يمتطي جواده الأسود[45]فيكتمل انسجام الألوان بمشهد عظيم يعج بالوقار و الاحترام ، تطغى عليه مشاعر ذات طبيعة كلها دينية[46]،يقود شيوخ القبائل التي كانت وجوههم السمراء الرزينة متلائمة مع ألبستهم الشرقية البيضاء الفاخرة[47]، و في خطابه الموجه للفرنسيين استعمل الأمير عبارات و كلمات منها:"بلادكم،أرضكم،دينكم،نساؤكم"[48]كُلها عكست فجوة الاختلاف في الثقافة و الهوية بين الفرنسيين و الجزائريين و شرعية الأمير في الدفاع عنها.

- خاتمة:

ساهمت عوامل عديدة في تكوين شخصية الأمير عبد القادر الجزائري منها نسبه الشريف و نشأته في بيئة دينية صوفية (الطريقة القادرية)و امتلاكه مؤهلات تمثلت في الذكاء و الحنكة و التواصل مع الشعوب الأخرى من خلال رحلته لأداء فريضة الحج و زيارة البقاع المقدسة،مما ساعده على تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة و قيادتها من أجل استرجاع سيادتها المسلوبة و شخصيتها المطموسة و ذلك بغرس و تثبيت الثقافة الوطنية.

الهوامش:

(1)- عمار عمورة،موجز في تاريخ الجزائر،دار ريحانة للنشر و التوزيع،الطبعة الأولى،2002،ص 132

(2)- شارل هنري تشرشل،حياة الأمير عبد القادر،ترجمة الدكتور أبو القاسم سعد الله،الدار التونسية للنشر،ص 39

(3)- محمد العربي الزبيري،الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع و المؤسسة الوطنية للطباعة، 1982،ص 12.

(4)- نزار أباضة،الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد،دار الفكر المعاصر،بيروت،الطبعة الأولى،1994،ص 9

(5)- عائشة بن ساعد، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،2004،ص 18

(6)- المرجع نفسه ،ص 22

(7)- صالح فركوس،المختصر في تاريخ الجزائر،دار العلوم للنشر و التوزيع،2002،ص154

(8)- شارل هنري تشرشل،حياة الأمير عبد القادر،ترجمة الدكتور أبو القاسم سعد الله،الدار التونسية للنشر،ص 39

(9)- صالح فركوس،المرجع نفسه،ص 154

(10)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 50

(11)- المرجع نفسه، ص 59

(12)- الأميرة بديعة الحسني الجزائري،الأمير عبد القادر حقائق و وثائق بين الحقيقة و التحريف،دار المعرفة،الطبعة الثانية،2008، ص 76

(13)- المرجع نفسه، ص 75

(14)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 143

(15)-محمد بشير بويجرة،الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث،منشورات دار القدس العربي،2009 ص 167

(16)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص 63

(17)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 100

(18)- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، المرجع السابق، ص75.

(19)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص ص 27 - 28

(20)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 102

(21)- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، المرجع السابق،ص ص 83-91.

(22)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 107

(23)- المرجع نفسه، ص 123

(24)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص ص 27 - 28

(25)- عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، الطبعة 1، الكويت، مؤسسة جائزة.عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري،2000 ،ص 223

(26)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص ص 27 - 28

(27)- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر،مطبعة المعارف، مصر،ص 3

(28)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 145

(29)- عشراتي سليمان،الأمير عبد القادر الشاعر،دار الغرب للنشر و التوزيع،الطبعة الثالثة،2009،ص 118

(30)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 24

(31)- عبد الحميد شعابنة،"الأمير عبد القادر المجاهد المثقف و السياسي الفارس"،مجلة أول نوفمبر، العدد 2001،165،ص 27

(32)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص 57

(33- Georges Yver," les prémolaires de la négociation de la tafna", Revue africaine, N° 64, 1923, p 529

(34)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص 18

(35)- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر،ج2،المطبعة التجارية،الإسكندرية، 1903،ص 7

(36- Ferkous Salah, Aperçu de L'histoire de l'Algérie DES PHÉNICIENS Á L'INDÉPENDANCE 814 AV.J.C /1962(traduit par salah benamor), Annaba, Dar El-oulom, 2007, p 161

(37)- محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص 10.

(38)- المصدر نفسه، ص 7.

(39)- عبد الله العروي،مفهوم التاريخ،المركز الثقافي العربي،الطبعة الرابعة،2005،ص 248

(40)- محمد بشير بويجرة،الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث،منشورات دار القدس العربي،2009،ص 255

(41)- شارل هنري تشرشل،المرجع السابق،ص 56

)- Ferkous Salah, opcit, p17342(

(43)- مصطفى الأشرف،الجزائر الأمة و المجتمع،ترجمة الدكتور حنيفي بن عيسى،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1983،

ص ص 115-116 .

(44)- محمد بن عبد القادر محمد بن عبد القادر محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج1،ص 4.

(45)- جمال الغيطاني،"الأمير عبد القادر،البطولة بعين فرنسية"،مجلة العربي،الكويت،العدد،1983 296،ص 73

(46)- عائشة بن ساعد، المرجع السابق، ص 66

(47)- أ.ف.دينيزن،الأمير عبد القادر و العلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة و تقديم أبو العيد دودو،دار هومة،الجزائر،2009

ص 114

(48)- محمد بشير بويجرة،المرجع السابق،ص 255.